

مولد هيراكليس^(١)

بقــــــــــــــــلم

الدكتور محمد صقر خفاجة

كيف نشأت هذه الأسطورة وكيف تطورت؟ ما هي الصور المتتالية التي أخذتها على مر العصور منذ هوميروس حتى پنداروس؟ وما التجديد الذي أدخله عليها الأخير؟ وما هي التغييرات التي تعرضت لها بعده؟ وما مدى تأثيره على ثيوكريتوس؟ وهل هذا الشاعر قلده تقليدا أعمى أم أضاف الى الأحداث أشياء من عنده تدل على ابتكاره وتشهد بعبقريته؟

* * *

هذه أسئلة حاولنا الاجابة عنها في مقالنا المنشور بنفس العدد باللغة الفرنسية وبيننا فيه كيف أن هذه الأسطورة ، كغيرها من الأساطير ، قد تطورت مع الزمن وأخذت تفقد تدريجيا المنزلة الدينية والروعة التي كانت لها عند القدماء ، وأصبحت تروى في عصر الاسكندرية على أنها قصة طريفة ، يعرضها الكتاب في قالب واقعي ، مملوءة بالمناظر المألوفة والحوادث اليومية ، المستمدة من الحياة نفسها ، فصارت لا تمت بصلة الى عالم الآلهة أو دنيا الأبطال .

وهذا تلخيص في منتهى الايجاز للفكرة الرئيسية بالمقال .

* * *

(١) ملخص المقالة المنشورة بالفرنسية في هذا العدد .

ورد في الالياده والأوديسا ، وهما أقدم ملحمتين ذكرت فيهما الأسطورة ، أن هيراكليس بن زيوس من ألكمينا ولد في طيبه ونعرض لغضب هيرا --- زوجة زيوس — التي أصرت على أن تذيبه العذاب بسبب غيرتها من أمه . ولكن ناظم هذه الأشعار لا يسهب في وصف التفاصيل بل يكتفى بهذه الإشارة العاجلة فلا ندرى هل كان ذلك نتيجة جهل أم رغبة في الإيجاز المطلق الذي كان يلجأ اليه الشاعر أحيانا ليحيط بعض الحوادث بغموض رهيب . أما هيزيودوس فيروى لنا القصة في شيء كثير من التفصيل ويضيف إليها معلومات جديدة . يبدأ روايته بالكلام عن ألكمينا ويشرح سر اعجاب « اله الآلهة » بها فيقول : « انها كانت تفوق كل النساء في جمالها وقامتها وذكائها » . ثم يذكر أن حبها لأمفيثريون ، زوجها ، كان لا يعلو عليه أى حب ، لذلك لحقت به الى طيبه حيث نفى لأنه كان قد قتل الكتريون ، أباه ، في نزاع قام بينهما . وفي طيبه حدث أن خرج أمفيثريون في حملة حربية وأثناء غيابه هبط رب السموات واتى الى ألكمينا واجتمع بها . وفي نفس الليلة ، عاد أمفيثريون من غيبته ونام مع زوجته بعد زيوس . ولما انتهت مدة الحمل ، وضعت ألكمينا توأمين « مختلفين ، أحدهما بطل قوى عنيف هو هيراكليس الجبار ، والثانى أفيكليس ، ابنها من أمفيثريون » .

نلاحظ أن هيزيودوس يفرق تفرقة تامة بين هيراكليس بن زيوس وبين أخيه ، ويصفه منذ ميلاده بالقوة الخارقة التي سيمتاز بها على أبطال اليونان جميعا . ومع ذلك فروايته لا تملأنا رهبة وجلالا مثل رواية پنداروس ، الشاعر المتدين ، الذى يضيف الى الأحداث معلومات تفصح عن مدى تعلقه بالبطل وتقديسه له .. فهو يكثر من ذكر البطل والاشادة به في كثير من قصائده ، ثم يتنبأ بتأليه ورفعه الى السماء ويشعرنا ، منذ الدقائق الأولى لميلاده ، بأنه يختلف عن البشر والآلهة ، فيقص علينا خبر مولده في رواية لا نجد لها عند أى من الشعراء والكتاب الذين سبقوه ، رواية من بنات أفكاره ، تعد من أروع وأعظم ما نظم ، وصف فيها ميلاد هيراكليس ونهاية حياته بالطريقة التالية .

بمجرد خلاص هيراكليس من آلام الوضع ونزوله من أحشاء أمه مع أخيه ، رآته هيرا . فثارت وأرسلت في الحال حيتين فظيعتين لتلتهما . ولكنه تصدى لهما ووقف أمامهما وقبض عليهما بيده القوية وأمسك برقبتهما في عنف بالغ وشدة متناهية حتى لفظتا النفس الأخير . عندئذ استولى دعر قوى على النساء الموجودات بجوار أمه لمساعدتها . ونزلت ألكمينا ، في سرعة خاطفة ، لتدفع عن ابنها الخطر وفي نفس اللحظة وصل زوجها أمفيتريون ، يحمل سيفه بيده ، وقد أضناه قلق كبير . عندما رأى الرضيع ولمس شجاعته الخارقة وقوته السماوية ، استدعى فوراً العراف الأكبر ، النبي الأعظم ترزياس ، ليوقفه على حقيقة الأمر . فشرح له الرسول مصير ابنه وذكر له كل ما سيصادفه من أخطار عندما يقضى على الوحوش الكاسرة والأشرار الآثمين ، وتنبأ أنه سينال في نهاية حياته خير الجزاء بأن يتزوج هيبا ويصعد إلى السماء ويحظى برضاء إله السموات ورب العالمين ، زيوس بن كرونوس .

هذه خلاصة رواية پنداروس : مجموعة من المعلومات المثيرة ، يسرع الشاعر في سردھا . لا يفكر الا في التعبير عن مشاعره تعبيراً قوياً واضحاً . ولا يبغي من قصته الا أن يبعث في القارئ الخوف ويثير في نفسه الاحترام والتبجيل لهذا الرضيع . لا يقف عند التفاصيل ، لا يسهب في شرح الحوادث ولكنه يستخدم عبارات سامية ، ذات معان عميقة ليظهر شعوره نحو هذا الرضيع « الخارق للعادة » . يتكلم عنه بثقة تامة ، وإيمان قوى . فتعز خبراته القلوب وتنفذ ألقاظه إلى الأعماق ، فتحمل القارئ على تصديق ما يقرأ وتدفعه إلى اجلال الرضيع والإيمان بعظمته والاعتقاد في تأليهه الذي فاز به نتيجة لتعذيبه على الأرض وتحمله صنوف الآلام لتحرير الإنسانية .

بقيت رواية پنداروس أسمى نموذج وأهم مورد نهل منه المؤرخون مثل هيرودوروس وفريكوديس وشعراء المأساة سوفوكليس ويوريديس كما تشهد بذلك بعض مقطوعات قصيرة بقيت لنا من مؤلفاتهم . ولكننا ، للأسف ، لا نستطيع معرفة الطريقة التي عالج بها هؤلاء الكتاب الأسطورة ولا كيفية تصويرهم لها لأن ما وصلنا من أعمالهم لا يزيد عن سطور مبتورة أو عبارات غامضة .

أما ثيوكريتوس ، أحد شعراء الاسكندرية المشهورين ، فقد عرف رواية پنداروس ونقل عنها الشيء الكثير وزاد عليها . حقا لقد استقى معلوماته من الشاعر الغنائى ولكنه لم يعرضها بنفس الطريقة بل رواها بصورة مختلفة كل الاختلاف ، تعبر عن رأيه ورأى معاصريه فى الأساطير التى وصلتهم من العصر الذهبى . وتبين موقفه منها وميله الى تصويرها . وصفها كما يصف حادثة عادية وملأها بمنابر مألوفة لا تدل على أية قوة خارقة ولا تعبر عن أى جلال أو تقديس . فنجد مثلا يرجىء وصول الحيئات الى أن يكبر الطفل وتنمو عضلاته ويمكنه أن يتحكم فى حركاته حتى تتاح له فرصة لا تنصاع لقره العقل . كما انه يعطى لافيكلس دورا مهما لم يقيم به من قبل . يصوره نائما بجوار أخيه ويجعله يصرخ عند رؤية الحيتين ليوظ أبويه . فتهرع ألكمينا هى وزوجها ليساعدا ابنهما ولكن قبل وصولهما الى غرفة الأطفال يملآن الدار حركة واضطرابا ويناديان على الخدم والحراس . وهذه كلها أمور طبيعية يصفها الشاعر بالتفصيل من غير ان يهتم بالكلام عن قوة الطفل أو شجاعته . ولكنه يروى الحادثة فى أسلوب فكه يشعرنا بأنه لا يصدق ما يقول ولا يعتقد فيما رواه السابقون . وعندما ينتهى من وصف هذا المنظر يسرد معلومات جديدة تغير جوهر الأسطورة تغييرا كبيرا . فأمفيتريون ، بعد انتصار ابنه ، يذهب الى فراشه لينام وينسى كل ما حدث . أما ألكمينا ، باعتبارها امرأة ضعيفة تؤمن بالخرافات ، فهى التى تبث ، صبيحة اليوم التالى ، فى طلب تريزياس . ويأتيها العراف الذى فقد كل هيئته وجلاله . فلم يعد عالما بالغيب أو نبيا مختارا كما صوره پنداروس وسوفوكليس بل أصبح « معزّما » مثل الذين نعرفهم فى الريف ومثل الذين عرفهم ثيوكريتوس فى قرى صقلية . رجل مشعوذ يطلب الى ألكمينا أن تشعل النار وتحرق البخور وتجمع الرماد المتبقى وتأمر الخادمة بالقائه فى النهر ثم تنح وتضحى الى غير ذلك من التصرفات المبتذلة التى لا تتصل بقدسية العرافة . هذا الى أن الشاعر يحاول بكل الطرق أن يفقد الأسطورة المعنى الرائع الذى كان لها عند پنداروس . فلا يذكر كلمة واحدة عن

زيوس ولا يتعرض لصلته بالكينا ولا يشعر القارىء مطلقا بأن هيراكليس ابنه ؛ كما يصور الكينا كأم رقيقة ، بسيطة تحب ابنها وتخاف عليه ، تعتقد فى الخرافات ؛ ساذجة تلجأ الى المشعوذين فلم تعد سليمة الأبطال أو زوجة ملك ، ذات مجد ووقار ذكية كما كانت عند هيزيودوس . وكذلك أمفيتريون أصبح زوجا مطيعا لأوامر زوجته ، يحمل ابنه ويهدده ويضعه فى فراشه ويغطيه ، ولم يعد ملكا مشهورا وبطلا مغوارا اشتهر فى الحروب وأحرز الانتصارات . وهيراكليس نفسه لم يعد ذلك الرضيع العجيب أو الطفل الغريب أو البطل الأول الذى يؤلهه پنداروس بل أصبح شخصا عاديا . لم يذكر ثيوكرتيوس شيئا عن أعماله وتغذيه وآلامه ولكنه يكتفى بالكلام عن تعليمه كأي تلميذ ثم يصوره فى صباه على أنه شاب قروى ، يشتغل بالزراعة ، يلبس ثيابا متواضعة ، لا يهتم الا بأكلة دسمة ؛ ريفى خشن ، وفلاح غليظ ، ليست بينه وبين البطل القديم أو الاله العظيم صلة ولا تربطه بزيوس رابطة .

بذلك ينجح شاعر الاسكندرية ، كما بينا فى المقال ، فى أن يجرد الأسطورة من كل ما هو غريب أو خارق للعادة ويرويه بطريقة مبتكرة ويبعد بها ، كل البعد ، عن عالم الخيال ودنيا الخرافات ويقرب بها من الحياة اليومية وما يدور بها من حوادث واقعية .